بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ... أما بعد:

فهذا تقريظ عن هذا الكتاب المعنون بـ «لغة القرآن الكريم»

للأستاذ الدكتور علي محمد حسن العماري .. بني عمار .. طهطا سوهاج

وقد قصد فضيلة المؤلف .. بقوله لغة القرآن .. طريقة الأداء التي نهجها القرآن الكريم في اختيار مفرداته.

وقد وضح فضيلة المؤلف : أن ألفاظ القرآن الكريم التي استعملها .. هي الألفاظ التي كان يستعملها العرب .. في نثرهم وشعرهم ... ولا غرابة في ذلك فالقرآن الكريم نزل بأبلغ لغاتهم لذا قال تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ «يوسف» وقال : ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّ مُّبِينٍ﴾ «الشعراء» وقد وضح فضيلة المؤلف :

أن القرآن امتاز بحسن اختيار الألفاظ .. في مواقعها من حيث الألفاظ .. وأيضاً من حيث تراكيب الجملة .. بل حتى من حيث نهايات الآيات .. وفواصلها.. والبناء الكلي للآيات ، كما وضح أنه لم يسبق مطلقاً لمؤلف .. أو كاتب أن نهج .. نهج القرآن الكريم .. لا من الأدباء ولا من الشعراء ..

وقد أدرك فصحاء العرب تفرد القرآن الكريم بطريقته الخاصة في الأداء- فقال قائلهم : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أعلاه لمثمر .. وإن أسفله لمغدق وإنه يعلو وما يعلى عليه ... وقد كان القرآن الكريم كذلك .. كما بين المؤلف .. أن القرآن أبطل قول من قال إنه قول كاهن ... أو قول شاعر ــ أو قول ساحر ــ كما وضح المؤلف أن القرآن أثبت أن أسلوبه . وطريقة أدائه.. وتراكيبه .. ومبناه الكلي .. مخالف لكلام العرب .. رغم أنه بلغتهم ..

كما وضح أن القرآن أعجز العرب ... وتكاد تتفق كلمة العلماء على أن القرآن الكريم جاء بأسلوب جديد غير الأساليب التي يعرفها العرب .. وذلك أمر طبيعي .. فهناك فرق بين كلام الخالق .. وكلام المخلوق .. فكان إعجاز القرآن.. لمخالفة أساليب العرب في كلامهم ، فليس القرآن نثراً .. ولا شعراً .. إنما هو قرآن وفقط .

وقد ضرب المؤلف أمثالاً عدة .. لسور القرآن .. وما احتوت عليه من فواصل.. متقاربة لكنها تختلف كلا منهما في إحساس السامع أو القارئ لهما .. وذلك مثل سورة النبأ والنازعات فلكل سورة طعمها .. وطابعها..

وأيضاً إذا نظرت إلى القصة في القرآن لوجدت لها في كل سورة طابع .. فقصة موسى عليه السلام .. مثلاً نرى لها طابعا في سورة القصص يختلف عن طابعها في سورة النمل ــ أو طه .. أو الأعراف .. وهكذا .. كل القصص ..

وهذا لا يتوفر إلا في القرآن الكريم .. وقد بين المؤلف ناقلاً عن بعض العلماء أن بلاغة القرآن ليس من نوع بلاغة الناس .. وأنه ليس من نوع كلام المخلوقين لا من أعلاه ولا من أدناه .. ولا من وسطه .. وآية ذلك أوائل السور.. من الحروف المتقطعة..

كما بين المؤلف أن إعجاز القرآن بالصرفة باطل .. وذلك صحيح ..

كما أثبت المؤلف .. إعجاز القرآن بوجوهه المختلفة .. فصاحة وأسلوباً وسلامته من كل عيب كما أنه خارج عن جميع النظم المعتادة .. الخ .. وفوق ذلك كله تحديه للإنس والجن .. فهو قرآن .. وكلام الله وفقط.. ويكفي أنه نزل من السماء لا دخل لمخلوق قط في شيء منه لا ملك .. ولا بشر .. حتى جبريل مهمته التبليغ وفقط ... كما وضح المؤلف أن : البيان الواضح للآيات القرآنية .. والفهم الحق .. والإدراك العميق لمعاني القرآن وأهدافه ومراميه .. هي المقاصد الواضحة لمضمون آيات القرآن الكريم .. فضلاً عن أن القرآن الكريم هو أس هذا الدين .. وحجته .. ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم على العالمين. والباقية إلى يوم الدين .. والمتحدى به كل العوالم .. ولو بأقصر سورة منه.

كما بين المؤلف .. أن القرآن بمحكمه .. ومتشابهه .. هدى للناس .. في كل أنماط حياتهم الدنيوية .. والأخروية .

كما بين المؤلف .. أن القرآن أنزل باللغة العربية .. وأن ما جاء فيه من ألفاظ غير -عربية .. هي في الأصل عربية .. أو أنها صارت بالاستعمال عربية- أو أنها مما توافقت فيه اللغات.

كما وضح المؤلف .. أن القرآن نزل بلغة قريش لأنها كانت في الدرجة العليا من الفصاحة وأنها جمعت في طياتها أبلغ لغات العرب .. وفرضت سلطانها على كل لغات العرب بحكم مركزها وسيادتها .. ولم يوجد خلافٌ في ذلك وقد ضرب المؤلف أمثلة كثيرة للغات العرب ..

وما كانت الأحرف السبعة .. إلا نتاجا للغات العرب المتفرقة والتي جمعتها قريش في لغتها .. وكأن لغة قريش هي كل لغات العرب .. وهي اللسان العام ــ الذي نزل به القرآن.

كما بين المؤلف ــ الحكمة من نزول القرآن على سبعة أحرف .. وأن ذلك كان للتيسير .. وأن ذلك كان للضرورة .. وأن ذلك كان في العهد الأول .. فلما مرنت الألسنة على النطق بالقرآن اقتصر على حرف واحد .. هو حرف قريش الذي جمع أبلغ لغات العرب .. حتى صار حرف قريش وكأنه لغة كل العرب ..

ثم كانت العرضة الأخيرة ونسخ فيها ما نسخ .. وما استقرت عليه العرضة الأخيرة هو القرآن الذي بين أيدينا اليوم.

كما بين الباحث أن بحثه مقتصر على الجانب اللغوي للفظ القرآن فقط المحدد المعنى ، وضرب لذلك الأمثلة .. وقد اهتم المؤلف باللفظ القرآني أيما اهتمام ، فقد تناوله من الناحية البلاغية وقال اختيار اللفظ للمعنى اللائق به .. سر من أسرار إعجاز القرآن الكريم ، وقد بلغ القرآن في ذلك الغاية التي لا يعرف البشر غاية بعدها.. وضرب لذلك أمثلة عديدة.

كما ذكر أن للقرآن استعمالات انفرد بها في بعض الألفاظ .. فنراه لا يذكر الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع .. ولا يذكر المطر إلا في موضع الاستفهام ــ وأن القرآن إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع .. وإذا قال سبع سماوات .. لم يقل الأرضين .. وإنما يعدل إلى لفظ آخر .. كما وضح المؤلف: أن في القرآن حروفاً زائدة

وأنها لفائدة .. وأن القرآن خالٍ من الحروف التي لافائدة لها .. فكل حرف في القرآن له معناه في موضعه .. وله فائدته .

كما تحدث فضيلة المؤلف عن فواصل الآيات .. وسرها .. وما فيها من بلاغة وحكمة ، لأنها طريق إلى إفهام المعاني في أحسن صورها .. وأن من السور ما جاءت فواصلها على حرف واحد .. كسورة القمر مثلاً . ومنها ما جاء على حرف واحد في أكثر الفواصل مثل سورة الأعراف .. كما أن أكثر سور القرآن متعدد الفواصل .. والأمثلة على ذلك كثيرة .

كما وضح المؤلف أن القرآن الكريم التزم الفواصل المتماثلة في مواطن الوعظ والترهيب ، وذلك غالب في السور المكية .. إلى آخر ما جاء في هذا الباب.

كما استعان المؤلف في ذلك بعلم التجويد .. وعلم الأصوات .. وبين أنه لاتوجد في القرآن الكريم فاصلة واحدة على حرف الغين .. ولا على حرف الخاء .. الخ ما جاء في هذا الشأن . موضحاً المقام في هذه الفواصل .

كما بين المؤلف أن القرآن أنزل بلغة العرب ، وجرى على نهجهم في بلاغتهم ومراعاة التناسب واللفظ معاً ، مما يزداد به المعنى جمالاً .. كما أن العلماء اتفقوا على أن الفواصل لا يجوز أن تسمى قوافي لأن القرآن لما سلب عنه اسم الشعر.. كذلك وجب سلب القافية.

كما وضح المؤلف : الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم .. وأن جمهور العلماء على أن المجاز بجميع أقسامه واقع في القرآن الكريم .. والمنكرون لذلك قلة .. ولا قيمة لإنكارهم .. رغم مكانتهم العلمية .. وقد فند المؤلف حججهم .. وبين أنه لا منافاة ولا تضاد في القرآن .. كما وضح المؤلف آراء المنكرين للمجاز وناقش آراءهم .. ورد عليها ..

وقد ذكر المؤلف كثيراً من أمثلة المجاز في القرآن الكريم .. وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يستحيل إنكارها .. وأيضاً من كلام العرب .. وأنه لا تنافر بين استعمال المجاز وإرادة الظاهر .. إلى آخر ما وضح المؤلف .. في هذا الباب ..

فقد ذكر آراء المعارضين والمنكرين للمجاز كابن القيم .. وغيره .. ورد عليهم .. مفنداً آراءهم.. ومثبتاً للمجاز بالدليل القاطع وأن المجاز لا يتعارض مع ظاهر اللفظ . أ.هـ

هذا .. وقد بذل فضيلة المؤلِّف الأستاذ الدكتور على محمد حسن العماري في هذا المؤلَّف جهداً مشكوراً يثاب عليه .. والمؤلَّف بهذا العنوان مؤلف قيم للغاية ومفيد لأهل التخصص .. وغيرهم .. وهو مؤلَّف زاخر بالفوائد المتعددة والمفيدة واضح في هذا التخصص .. وقد أبلى المؤلِّف بلاء حسناً .. في صبر يحسد عليه .. والكتاب بهذه الصورة جدير بالطبع والنشر والتوزيع لتعم به الفائدة . هـ هـ والله ولي التوفيق

١٨ من صفر ١٤٢٩هـ
الموافق ٢٥ فبراير ٢٠٠٨ م

دكتور
أبو ضيف مجاهد حسن
الأستاذ بكلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بسوهاج وعميدها الأسبق

Obeikan.com

obeikan.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ربما وقع لبعض الناظرين في هذا الكتاب أني أقصد بلغة القرآن اللغة العربية فهذا أول ما يتبادر إلى الخواطر عند سماع هذه الكلمة ، لما جرى به عرف الناطقين باللغة أن لغة القرآن هي اللغة العربية .

ولكنني لم أقصد هذا المعنى – وإن كان وارداً – وإنما قصدت بهذه اللفظة (لغة القرآن) طريقة الأداء التي نهجها القرآن الكريم في اختيار مفرداته ، وجميل نسجه ، وروعة نظامه وتأليفه .

وألفاظ القرآن الكريم هي الألفاظ التي كان يستعملها العرب في نثرهم وشعرهم ، ولكن القرآن يمتاز بحسن اختيار اللفظ للموقع الذي يقع فيه ، وتراكيب القرآن هي تراكيب العرب ، والطرق التي سلكها في أداء أغراضه ومعانيه هي طرقهم ، ولكنه يمتاز – أيضاً – وينفرد بسمو التركيب ، وعلو الطريقة ، والدقة العجيبة في حسن اختيارها.

شيء واحد خالف فيه القرآن الكريم نهج العرب وطريقتهم ، وذلك هو البناء الكلي للآية ، وللآيات ، وللسور ، فهو متميز ببناء فريد لم يكن قبله ، ولم يأت بعده ما يماثله ، إلا ما قيل من صنيع أبي العلاء المعري في كتابه : (الفصول والغايات) ولكن النظرة العابرة تدرك بوضوح البون الشاسع بين أسلوب كتاب السماء ، وأسلوب صاحب المعرة .

على أن المتأمل في معاني هذا الكاتب ، إذا كان منصفاً برأ فيلسوف المعرة من أن يكون قصد إلى معارضة القرآن ، وكيف وهو يقول إنه ألف الكتاب في تمجيد الله وتعظيمه .

وقد أدرك فصحاء العرب تفرد القرآن الكريم بطريقة خاصة في الأداء منذ اللحظة الأولى ، فمما روى في ذلك ما جاء على لسان الوليد بن المغيرة حين جاء إلى النبي ﷺ

obeikan.com

وسمع شيئاً من القرآن ، فكأنه رقَّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه ، فقال : يا عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ، لئلا تأتي محمداً لتعرض لما قاله . قال الوليد : قد علمت قريش أني من أكثرها مالاً . قال : فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر مني ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من ذلك[1] .

وفي رواية أخرى أن الوليد جاء يوماً إلى قريش ، فقال : إن الناس يجتمعون غداً في الموسم ، وقد فشا أمر هذا الرجل في الناس ، فهم سائلوكم عنه ، فماذا تردون عليهم ؟ فقالوا : مجنون يخنق ، فقال : يأتونه فيكلمونه فيجدونه صحيحاً فصيحاً عادلاً فيكذبونكم ، وقد حجهم في نفس الرواية ، ودفع هذه التهمة بقوله : إنكم قلتم : محمد مجنون ، وقد ولد بين أظهركم لم يغب عنكم ليلة ولا يوماً ، فهل رأيتموه يخنق قط ؟.

قالوا : نقول : هو شاعر . قال : هم العرب ، وقد رووا الشعر ، وفيهم الشعراء ، وقوله ليس يشبه الشعر فيكذبونكم ، قالوا : نقول : هو كاهن . قال : إنهم لَقَوُا الكهان فإذا سمعوا قوله لم يجدوه يشبه الكهنة فيكذبونكم[2] .

وما روي عن عتبة بن ربيعة – وكان سيداً حليماً – حين سمع من النبي ﷺ سورة (فصلت) وأنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما ، فلما رجع إلى قريش وسألوه : ما وراءك قال : ورائي أني سمعت قولاً ، والله ما سمعت بمثله قط ، وما هو بالشعر ، ولا السحر ، ولا الكهانة[3] .

ويؤيد هذين ما جاء في إسلام (أبي ذر) – رضي الله عنه – روى أنه قال : قال لي أخي أُنيس : إن لي حاجةً إلى مكة ، فانطلق ، فراث ، فقلت ، ما حبسك ؟ قال : لقيت رجلاً يقول : إن الله تعالى أرسله ، فقلت : فما يقول الناس ؟ قال :

---

١ – الإتقان في علوم القرآن ج٢ ص ١١٧.

٢ – الرسالة الشافية للإمام عبدالقاهر الجرجاني (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) ص١١١.

٣ – المصدر السابق : ص١١٣.

يقولون شاعر – ساحر – كاهن ، قال أبو ذر : وكان أنيس أحد الشعراء . قال : تالله لقد وضعت قوله على إقراء الشعر[1] فلم يلتئم على لسان أحد ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون .

فهذه شهادات ذوات بال من هؤلاء الفصحاء تؤكد أن القرآن الكريم لون مختلف عن ألوان القول التي كان العرب يعرفونها .

هو شاعر ، هو كاهن . هاتان التهمتان هما أول ما بدأ العرب يصفون بهما الرسول ﷺ ، وقد أبطل القرآن هاتين التهمتين بصورة قاطعة : ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٣﴾ [الحاقة : ٣٨-٤٣].

فمشركو العرب أذاعوا أن القرآن شعر ، وأذاعوا أنه كهانة[2] ، ومعنى هذا أن شبه القرآن عندهم بالشعر وبكلام الكهان هو الذي يمكن أن يقولوه ، وهم حريصون على أن يقولوا ما يمكن أن يصدَّقوا فيه ، فهم – بذلك – يقرون بأنه ليس كسائر الكلام ، وإنما هو نوع خاص منه ، وقد نفى بعض فصحائهم أن يكون القرآن شعراً أو قول كاهن ، كما نفى ذلك القرآن الكريم ، فثبت أن القرآن في أسلوبه وطريقة أدائه ، ومبناه الكلي مخالف لكلام العرب[3] ، ومتميز عنه ، وإن كانت ألفاظه ألفاظهم ، وتراكيبه تراكيبهم .

ومرت حقب ، وظهر البحث في إعجاز القرآن ، وفي بيان أسرار هذا الإعجاز وفي الحديث عنه بعامَّة ، وكادت تتفق كلمة العلماء على أن القرآن الكريم جاء بأسلوب جديد غير الأساليب التي يعرفها العرب ، فليس هو بشعر ، وليس هو بخطابة ، ولم يجيء على طريق الحكم والوصايا والأمثال التي أثرت عنهم ، ولا الرسائل ، ولكل من هذه الأنواع (قالب) خاص معروف لديهم ، والقالب الذي جاء عليه القرآن غير كل هذه القوالب .

---

١ – الإقراء : القوافي . واحدها قرء .
٢ – الكهانة : بكسر الكاف – الصناعة ، أي أن القرآن في رأيهم صناعة كهان .
٣ – أي أن مبانيه ونظمه له طرائقه الخاصة ، فهو بلسان عربي ولكنه كلام الله .

ذكر على بن عيسى الرماني (م ٣٨٦ هـ) في رسالته : (النكت في إعجاز القرآن) أن القرآن جاء بأسلوب جديد حيث قال : (وأما نقض العادة ، فإن العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة : منها الشعر ، ومنها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنثور الذي يدور بين الناس في الحديث [١] فأتى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن ، تفوق كل طريقة)[٢] .

وسار على هذا النهج أبو بكر الباقلاني فأطال القول فى هذا المعنى ، ومن ذلك قوله : (إنه نظم خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد فى كلامهم ، ومباين لأساليب خطابهم ، ومن ادعى ذلك لم يكن له بد من أن يصحح أنه ليس من قبيل الشعر ، ولا من السجع ، ولا الكلام الموزون غير المقفي ، لأن قوماً من كفار قريش أدعوا أنه شعر ومن الملحدة من يزعم أن فيه شعراً . ومن أهل الملة من يقول : إنه كلام مسجع ، إلا أنه أفصح مما قد اعتادوه من أسجاعهم ، ومنهم من يدعي أنه كلام موزون . فلا يخرج بذلك عما يتعارفونه من الخطاب)[٣] .

ثم أخذ (البلاقلاني) يبرهن على أن القرآن مخالف لكل واحد من هذه الأنواع ، بل نراه يقول في بعض كلامه : (ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز) .

وفي موضع ثالث يقول : (فاستدد لنا بتحيرهم في أمر القرآن على خروجه عن عادة كلامهم ، ووقوعه موقعاً يخرق العادة ، وهذه سبيل المعجزات) .

وظل يردد هذا كثير من العلماء ، حتى في عصرنا الحديث ، فقد قال الدكتور طه حسين وهو يتحدث عن النثر الفني : (ولكنكم تعلمون أن القرآن ليس نثراً ، كما أنه ليس شعراً . إنما هو قرآن ، ولا يمكن أن يسمى بغير هذا الاسم ، ليس شعراً وهذا واضح ، فهو لم يتقيد بقيود الشعر ، وليس نثراً لأنه مقيد بقيود خاصة به

١- واضح أنه يريد بذلك ما نسبه (لغة التخاطب) .
٢- ص ١٠٢ ضمن ثلاث رسائل .
٣- إعجاز القرآن ص ٧٥ ، ط دار المعارف . ونلاحظ أنه يجعل من الكلام (موزونا غير مقفى) ، ويبدو أنه يريد به (النثر الفني) .

لاتوجد في غيره ، وهي هذه القيود التي يتصل بعضها بأواخر الآيات ، وبعضها بتلك النغمة الموسيقية الخاصة ، فهو ليس شعراً ولا نثراً ، ولكنه ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ . فلسنا نستطيع أن نقول إنه نثر كما نص هو على أنه ليس شعراً).

(كان وحيداً في بابه ، لم يكن قبله ، ولم يكن بعده مثله ، ولم يحاول أحد أن يأتي بمثله ، وتحدى الناس أن يحاكوه ، وأنذرهم أن لن يجدوا إلى ذلك سبيلا)[1] . وهذا تأييد لرأي المتقدمين من علمائنا ، ولكن فيه بعض الأوجه التي يباين بها القرآن الكريم النثر العربي ، فهو مقيد بما يتصل بأواخر الآيات ، وهو ذو نغمة موسيقية خاصة .

ونستطيع أن نزيد على ما قاله الدكتور طه (الجو الخاص) الذي تتسم به كل سورة على حدة ، حتى أن المتذوق للقرآن يدرك بحسه أن لكل سورة روحاً خاصة ، وطابعاً خاصاً ، وطعماً خاصاً - إن صح هذا التعبير - وهو يستطيع أن يدرك حتى ولو كان نسى ما حفظ من القرآن أن هذه الآية من هذه السورة أو ليست منها .

وهذا شيء وجدته في نفسي ، فقد كانت تمر بي الآية لا أعرف مكانها من سور القرآن فإذا خطر لي أنها من سورة كذا اطمأنت النفس إلى ذلك ، أو نفرت منه لأن فيها جواً خاصاً لكل سورة تستطيع باستحضاره أن تحس بأن هذه الآية من هذا الجو أو ليست منه.

وهذا المعنى يجول في نفسي من زمن بعيد ، وأحِسُّ به إحساساً قوياً ، وقد هممت أكثر من مرة أن أعبر عنه ، وأكشف بأسلوب واضح عن جو كل سورة ، ولكنني لم أستطع ، أو قل ولكن وضوح هذا المعنى في ذهني لم يكن بالدرجة التي تستطيع قدرتي في اللغة أن تكشف عنه ، فهو واضح في الحس ، ولكنه غامض عندما يريد العقل أن يعبر عنه بألفاظ اللغة[2] .

وكم تمنيت أن يستطيع أحد من المتذوقين للقرآن الكريم أن يعبر عن هذا الإحساس ولو بأسلوب مقارب ، إن لم تسعفه قدرته اللغوية على أن يكشف عنه بوضوح تام .

١- من حديث الشعر والنثر ص ٣١ .
٢- ومن هذا ما نطلق عليه : السهل الممتنع .

ولأضرب لذلك بعض الأمثلة . انظر مثلاً في سورة (النبأ) وفي سورة (النازعات) وهما سورتان متجاورتان في المصحف ، وفواصلهما أكثرها على الألف ، ولكنك تجد إحساسك بإحداهما غير إحساسك بالأخرى ، وأدل الدليل على ذلك أنك لو أخذت آية من إحداهما وأدخلتها بين آيات الأخرى لنبا بها مكانها ، ليس فقط من جهة أن معناها ربما لا يتفق مع سياق الآيات التي أدمجت فيه ، ولكن لأن نظمها وطابعها وطعمها ، كل ذلك مختلف أيضاً .

بل أن القصة القرآنية لها في كل سورة طابع غير طابعها في السورة الأخرى ، مع اتحاد المضمون وهي في ذلك متفقة مع الطابع العام للسورة ، حتى إنك – لو كنت متذوقاً للقرآن – تستطيع أن تقول إن هذه القصة بهذا الأسلوب تشبه أن تكون في سورة كذا .

ومما امتاز به البناء القرآني عن بقية النثر العربي قديمه وحديثه التلاؤم التام بين مفرداته وتراكيبه ومعانيه ، ولو أنك رفعت كلمة من موضعها ، ووضعت مكانها كلمة مرادفة لها لأدركت بذوقك وإحساسك – لأول وهلة – ما اعترى الكلام من الخلل والضعف .

نقل الزركشي في (البرهان) عن (ابن عطية) في مقدمة التفسير قوله : (وكتاب الله ــ سبحانه – لو نُزعت منه لفظة ، ثم أُدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد).

وكذلك لو عبر عن المعنى الذي تضمنته الآية بأي أسلوب آخر لوجد أن الأداء ناقص ، لا سيما عندما ينعم الإنسان النظر فيما تحتويه الآية من معنى .

وعند ابن حزم الظاهري أن القرآن ليس من نوع بلاغة الناس [1] وأنه ليس من نوع كلام المخلوقين لا من أعلاه ولا من أدناه ولا من أوسطه[2] وأن آية ذلك الأقسام التي في أوائل السور ، والحروف المقطعة التي لا يعرف أحد معناها ، قال : (وبرهان هذا أن

---

١ – الفصل في الملل والنحل ، جـ١ ، ص٨٧ .
٢ – المصدر السابق : جـ ٣ ، ص١٢ .

إنساناً لو أدخل في رسالة له أو خطبة أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجاً عن البلاغة المعهودة بلا شك ، فصح أنه ليس من نوع بلاغة الناس أصلاً).

وذكر أن مما تميز به القرآن عن بلاغة الناس (إدخال معنى بين معنيين ليس بينهما كقوله تعالى : ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ . وليس هذا من بلاغة الناس في ورد ولا صدر ، ومثل هذا في القرآن كثير .

وابن حزم يوافق بذلك ما قاله الباقلاني ، ولكنه أكد هذا المعنى لغرض آخر لم يتورع عن إظهاره ، فعنده أن القرآن معجز ، ولكن إعجازه جاء من منع الله العرب أن يعارضوه ، وليس هو في أعلى درجة البلاغة ، لأنه : (لو كان كذلك وقد أبى الله – عز وجل – أن يكون ، ما كان حينئذ معجزاً ، لأن هذه صفة كل باسق في صفته والشيء الذي هو كذلك ، وإن كان قد سبق في وقت ما فلا يؤمن أن يأتي في غد ما يقاربه بل ما يفوقه ، ولكن الإعجاز في ذلك إنما هو أن الله عز وجل حال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله ، ورفع عنهم القوة في ذلك)[1] .

ومن غريب ما ذكره هذا العالم الكبير في هذا الفصل أن كل كلمة قائمة المعنى إذا تليت على أنها من القرآن تكون معجزة ، ولا يقدر أحد على المجيء بمثلها أبداً ، والكلمة المذكورة متى ذكرت في خبر على أنها ليست قرآناً فهي غير معجزة . قال : وهذا هو الذي جاء به النص ، والذي عجز عنه أهل الأرض منذ أربعمائة عام وأربعين عاماً .

فابن حزم من القائلين بالصرفة ، وهو مذهب باطل ، قد أثبتنا بطلانه في غير هذا الموضع[2] .

ثم أن من العلماء من اعتبر هذا التمايز هو سر الإعجاز ، أو هو أحد وجوه الإعجاز ، كما مر بنا في رأي الباقلاني ، ومنهم من سلم بالتمايز ، ولكنه أنكر أن يكون هذا سر الإعجاز ، أو أحد الأسرار فيه .

---

١ – المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٨٧ .

٢ – انظر كتاب (حول إعجاز القرآن) للمؤلف، ومعنى الصرفة : أن الله صرف العرب عن الإتيان بمثله، ولولا ذلك لأتوا .

وإنه لمن العجب أن يذكر بعض المؤلفين المحدثين أن العلماء لما عجزوا عن بيان أسرار الإعجاز في القرآن قالوا : إنه كلام لا كالكلام ، فهو يرتب القول بهذا الرأي في الإعجاز على عجز العلماء عن إدراك أسراره .

وهو – ثانياً – يشير إلى أن العلماء وجدوا ضالتهم في هذه المقالة بعد أن عجزوا عن بيان أسرار الإعجاز ، وكلامه – ثالثاً – يشير إلى أن العلماء اهتدوا إلى هذا الرأي بعد ما أعياهم البحث .

ولقد عرض الفخر الرازي لهذا الرأي ، وفنَّده في كتابه (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز) . قال : (ومن الناس من جعل الإعجاز في أن أسلوبه مخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل لا سيما في مقاطع الآيات مثل : يعلمون ويؤمنون وهو – أيضاً – باطل من خمسة وجوه :

الأول : لو كان الابتداء بالأسلوب معجزاً لكان الابتداء بأسلوب الشعر معجزاً .

الثاني : أن الابتداء بأسلوب لا يمنع الغير من الإتيان بمثله .

الثالث : يلزم أن الذي تعاطاه مسيلمة من الحماقة في : (إنا أعطيناك الجماهر . فصل لربك وجاهر) وكذلك : (والطاحنات طحناً) في أعلى مراتب الفصاحة.

الرابع : أنا لما فاضلنا بين قوله تعالى : ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ وبين قولهم : (القتل أنفى للقتل) لم تكن المفاضلة بسبب الوزن ، والإعجاز إنما يتعلق بما به **ظهرت الفضيلة** .

الخامس : وهو أن وصف بعض العرب القرآن بإن له لحلاوة ، وإن عليه لطُلاوة لا يليق بالأسلوب[1] .

١- كسرت الهمزة في : إن له لحلاوة ، لأن التقدير وصفه بقولهم ، والطلاوة بضم الطاء وفتحها : البهجة.

هذا وقد ذكر صاحب البرهان من بين الآراء التي قيلت في الإعجاز رأيين :

الأول : الفصاحة وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب وغير ذلك مقترناً – بالتحدي . قال : واختاره الإمام فخر الدين .

الثاني : ما في القرآن من النظم والتأليف والتصريف وأنه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب ، ومباين لأساليب خطاباتهم ، واختاره القاضي أبو بكر[1].

فيبدو أنه يفرق بين (غرابة الأسلوب) وبين (خروج القرآن عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب) أو كما عبر عنه بعضهم (الابتداء بأسلوب جديد) .

ولكن لا أرى أن هناك فرقاً ، وإنما الفرق بين هذين الوجهين أن القائل بالأول يجعل (غرابة الأسلوب) أحد أسرار الإعجاز ، فهو وجه منضم إلى غيره من الفصاحة والسلامة من جميع العيوب .

وقد سبق أن نقلت إبطال الرازي للوجه الثاني من هذين الوجهين ، فهل هو قائل بالوجه الأول ، كما نقل عنه السيوطي والإتقان ؟.

الفخر في كتابه (نهاية الإيجاز) ذكر أربعة مذاهب للناس في الإعجاز ، وأبطلها جميعاً ، وهى : الصرفة (مذهب النظام ومن نهج نهجه) ، والأسلوب المخالف لأسلوب الشعر والخطب والرسائل ، وعدم الاختلاف والتناقض في القرآن ، واشتماله على الغيوب .

ثم قال : (ولما بطلت هذه المذاهب ، ولابد من أمر معقول حتى يصح التحدي به ، ويعجز الغير عنه ، ولم يبق وجه معقول في الإعجاز سوى الفصاحة علمنا أن الوجه في كون القرآن معجزاً هو الفصاحة .

---

١ – جـ٢ ، ص ٩٧ .

ثم يفسر الفصاحة بأنها (المزايا التي ظهرت لهم في نظم القرآن ، والبدائع التي راعتهم من مبادئ الآيات ومقاطعها ، وفي مضرب كل مثل ، ومساق كل خبر ، وصورة كل عظة وتنبيه وإعلام وتذكير) .

والرازي نهج في رده على القائلين بأن وجه الإعجاز هو الابتداء بأسلوب جديد نَهَجَ نَهْج القاضي عبد الجبار المعتزلي فأكثر الردود التي ذكرها الرازي أخذها من كتاب (المغنى) للقاضي (أنظر ص ١١٦ ، ٢١٧) .

وسواء كان (الأسلوب المتفرد) وجه الإعجاز ، أو أحد الوجوه ، أو ليس وجهاً في الإعجاز ، فالذي لا شك فيه أن القرآن الكريم في بنائه مخالف لكل أبنية الأدب العربي ولكنه – مع ذلك – لم يترك وجهاً من وجوه فصاحتهم إلا اشتمل عليه .

فهو من ناحية البناء الكلي متميز عن ضروب شعرهم وألوان نثرهم ، ومن ناحية استخدام الألفاظ ، واستعمال التراكيب آخذ بكل مظاهر بلاغتهم وفصاحتهم .

وسبيلي في هذه الأبحاث أن أعرض لما اشتملت عليه ألفاظ القرآن وتراكيبه ، وطرق أدائه من بلاغة وروعة .

والله المستعان، ، ،

****